ذاكرة المكان: المصدار

رشاد رداد*

حدّثني (سالم الذيب) قال: كنتُ ضمن العائلات التي سكنت ذلك السفح الجميل المطلّ على كنيسة اللاتين برهبتها وكياستها وسكونها، إنّه (المصدار)؛ بيوتات متلاصقة تفصلها أزقّة ضيّقة متعرِّجة.. كانت تلك البيوت من الصفيح والخشب، ومَن كان ذا سعة كانت جدران بيته من الطوب، والسقف بلا تردُّد صفيح أو زينكو، وكان البيت غرفة واحدة للنوم والطبخ والمعيشة، وحمّام بعيد قليلاً عن الغرفة.

الحيّ كانت تسكنه عائلات مسيحيّة وأخرى مسلمة، ولا تستطيع أن تفرِّق بين بيت المسيحي وبيت المسلم. ومِن العائلات التي سكنت ذلك الحي: بطارسة، وعوّاد، وردّاد، ومشربش، والجمل، وجاد الله، والكيلاني. وكان أكثر الأشخاص تأثيراً في الحيّ ذلك الإقطاعي الثريّ (رزوق) حيث كان يمتلك نصف الحيّ، وكان بيته في الستينات من الحجر، وهذه علامة كافية وفارقة جداً على ثراء ذلك الرجل.

في أسفل ذلك السفح، كانت هناك مغارة كبيرة تتسع لكلّ أهل الحي.. وقد اختبأ فيها أهل الحيّ في السبعين واستطاعت أن تضمّهم بأريحيّة كاملة، وكانت هذه المغارة تسمى مغارة (رزوق)؛ نسبة إلى ذلك الرجل، لأنّها كانت تقع ضمن حدود أرضه التي كانت تبدأ من الشارع الحالي (المصدار) وتنتهي إلى المقبرة في الجهة العليا لبيته، وكانت معظم الأرض التي تحيط ببيته مشجَّرة ومسنسلة، وفي منتصفها كانت مغارة أخرى صغيرة، ينام فيها شخص يسمى (أبو عيسى). كان أبو

* كاتب أردني

عيسى أعزباً، وهو سقّاء الحيّ، وكانت علاقاته مع نسوة الحيّ جيدة. وكان يأتي بالماء من رأس العين في المكان نفسه المُقام عليه (أمانة عمان). يجلب الماء من تلك العين، ويصعد بها إلى ذلك الحي دون كلل أو تعب. كان يعلّق خشبة على كتفيه يتدلى منها دلوان من الجلد، وكان يُحاسِب النساء على (النقلة)؛ حيث كانت أجرة (النقلة) تساوي قرشاً أو رغيف خبز، أو ما تجود به النساء عليه في ذلك الوقت.

كان رغيفُ الخبزِ رغيفَ تعبٍ وجهد، والحصول عليه ليس بالسهولة التي هي عليه الآن، وكان يمرّ بمراحل متعدِّدة؛ يُؤتى بالقمح، ثم يُطحن بطاحونة يدوية، أو يُرسل إلى (بابور الطحين) الذي كان يقع مقابل الأمانة حالياً، بجانب شركة التبغ، وكان هذا البابور لرجلٍ أرمنيّ.

بعد ذلك، يُعجن، ثم يُترك ليتخمَّر، ثم يُقطع قطعاً صغيرة بحجم الرغيف، ليُرسَل إلى الفرن الوحيد في ذلك الوقت (فرن يوسف أبو العينين) بجانب دَرَج دير اللاتين، ليُخبَز هناك.

وكان في الفرن شخص يوصِل الخبز إلى البيوت يسمى (الأجير)، وذلك مقابل رغيف خبز أو تعريفة أو قرش، وبجانب المخبز (الفرن) كانت بقاله وحيدة تبيع اللبن والجبن يمتلكها شخص يدعى (سعيد الشامي)، وكلّ منتجاته طازجة وتُصنع يدوياً ولا مجال للغش فيها.

في نهاية الحي، عند الإشارات الضوئية الحاليّة، كان هناك «المهاجرين»، وكان يقف أمام ذلك المخفر شرطيّ أسمر نحيل، يغنيك عن كل الإشارات الضوئية، يعرفه الأردنيون والعمّانيون؛ إنّه هزّاع الذنيبات.. ذلك الشرطيّ الذي كان صديقاً لكل السائقين، يستقبلك بابتسامة، ويودّعك بابتسامة.. وكم تكون مندهشًا من حركة يديه التي لا تهدأ.

مقابل ذلك السفح، كان محلّ لبيع الأدوات الكهربائية؛ محل بسيط، إنّه محل «عيسى مراد» المؤسِّس لهذه العائلة الكريمة.

وبجانبه كان أقدم بلياردو في عمان؛ «بلياردو رشيد» الذي تمّ إغلاقه في نهاية السبعينات، واستبدل بمحل لصناعة الصاج. تتجه نحو اليسار قليلاً، فتجد «صالون هاني» المُحاذي لدرَج المصدار مقابل الكنيسة، وبجانبه كانت «بقاله مشربش»، ومحلّ صغير لبيع وصيانة الأسلحة والذخيرة، وقد تمّ هدمه في توسعة شارع المصدار، وكذلك محل الأسلحة الذي كان بجانبه، وبقاله مشربش أيضاً.

***

يُتابع سالم الذيب حديثه عن تلك الحقبة المهمّة

في عمان... عمان الستينات والسبعينات:

وكم كانت فرحتنا عندما أخذتنا أمي، أنا وإخوتي، لنشاهد ما غنمه الجنود النشامى من حرب النصر والكرامة: دبابات إسرائيلية ومصفَّحات.

سار بها جنود الوطن في شوارع العاصمة، وكانت الشوارع مزدحمة بالناس الذين راحوا يهللون ويباركون ويحيّون الجنود الأردنيّين؛ جنود الجيش العربي، وهم يسيرون بعزة وكرامة.

ذلك مشهد مؤثِّر لن ننساه أبداً.

يقول محدِّثي سالم الذيب: نعود إلى المصدار، إلى مضافة دار عوّاد وردّاد؛ بيت من الصفيح الكامل، كان أهل هذه العائلتين يتسامرون به بعد المغرب... وقليل منهم مَن كان يذهب للمقهى القريب من ذلك الحيّ.

فالبيوت لم يدخلها التلفاز، وبعض البيوت كان بها راديو يعمل على البطاريات، لأنّ الكهرباء في ذلك الوقت لم تكن متوافرة، فكانت الإضاءة بفوانيس الكاز، أو بدرجة أرقى «اللوكس».

وكان هناك شخصان ظريفان أصحاب نكتة... الأول

درويش عواد، والثاني حسين عواد، وهما أخوان، وكانا قمة في الظرافة، بحيث كانت تُسمع قهقهات الرجال المتسامرين من داخل البيوت. **ويقول محدثي:** إنّ عائلة عواد كانت في الأصل من الكرك، أما عائلة ردّاد فكانت من قرية صخرة، ثم استوطنت هذه العائلة قرية كفر يوبا في إربد... ثم بعد ذلك، نتيجة قتل أحد أفراد هذه العائلة لرجل في تلك القرية استبعدوا وذهبوا إلى قرية أبو شوشة في فلسطين، وبعد أن هدأت النفوس عاد بعضهم إلى كفر يوبا، والقسم الآخر قرّر أن يبقى في عمان.

بعد ذلك، يقول محدثي: إنه لم تكن هناك مدارس قريبة من الحيّ، فيضطرّ مَن يريد الدراسة أن يذهب إلى مدرسة العباسيّة القريبة من رأس العين، بجانب سوق الخضار، وكان من أشهر الأطباء في ذلك الحيّ الطبيب الأرمني (عيسى واكيم) والطبيب (يوسف الحاج) وزوجته.

أما طبيب الأسنان الوحيد في تلك الفترة، فكان (البطيخي)، بجانب مخفر المهاجرين القديم.

هي أمكنة وذكريات ستظلّ حيّة في قلوبنا، ونورثها لأولادنا وبناتنا لكي يظلّ انتماؤهم للمكان الذي عاش فيه آباؤهم وأجدادهم... وما زال جزء صغير منه موجوداً ومع الزمن، استبدلت الجدران والأسقف، وأصبحت بيوتاً قابلة للحياة العصرية... ونتيجة للضغط العددي لدى كلّ أسرة، اضطرّ الكثير من مؤسسي ذلك الحيّ، أو أولادهم، للسكن في مناطق قريبة منه، فمنهم من اتجه إلى الوحدات، أو الأشرفية، أو النظيف، أو القويسمة، أو جبل عمان، أو جبل الحسين، ومنهم من سافر إلى أميركا وأوروبا.